



الزيارات والبعثات العلمية بين صفتي المتوسط خلال النصف الأول  
من القرن العشرين. (التواصل التونسي الفرنسي أمودجا)

محمد بوطيني

جامعة المدية

[bt.med@hotmail.com](mailto:bt.med@hotmail.com)

تاريخ النشر: 2018/03/31

تاريخ القبول: 2018/03/01

تاريخ الإيداع: 2017/01/15

الملخص:

تتناول الدراسة إشكالية اقتداء المغلوب بالغالب، وكيفية فهم اقتداء الضعيف بالقوي، باعتبار أن البلاد التونسية التي كانت تعيش التخلف كباقي الدول والشعوب العربية، فرغم سبق الحداثي والنهضوي التونسي مقارنة بالكثير من الدول العربية، نتيجة عوامل وأسباب عديدة، منها الاحتكاك والتواصل بين التونسيين والأوروبيين، الذي تمخض عنه ظهور الحركة إصلاحية وفكرية تونسية ما بين القرنين التاسع عشر والعشرين، حيث اختلفت تلك النخبة في المشروع الاجتماعي الحداثي التونسي. فهل يجب أن تأخذ الأمة التونسية كل ما هو غربي والاقتداء به، أم يجب أخذ الجوانب الإيجابية وترك السلبيات لبناء مجتمع متقدم ومتطور، هذا ما نجيب عنه من خلال الفكر النخبوي التونسي في هذه الدراسة.

الكلمات الدالة:

الحداثة؛ التواصل؛ الاحتكاك، خير الدين باشا؛ المعهد الصادقي

**Abstract:**

The study deals with the problem of the use of the majority of the majority, and how to understand the use of the weak by force, considering that the Tunisian country, which was living underdevelopment like other Arab countries and peoples, despite the Tunisian modernity and Tunisian Renaissance compared to many Arab countries, due to several factors and reasons, including friction and communication between Tunisians and Europeans Which resulted in the emergence of the Tunisian reform and intellectual movement between the 19th and 20th centuries, where the elite differed in Tunisia's modern social project.

Should the Tunisian nation take all that is western and follow it, or should we take the positive aspects and leave the negatives to build an advanced and developed society? This is what we can answer through the Tunisian elite thought in this study.

**key words:**

Modernism; Communication; Traditions, Khairuddin Pasha; Sadiki Institute;



رغم أن البحر الأبيض المتوسط يعتبر فاصلا طبيعيا ما بين قارتي أوروبا وإفريقيا ، فهذا لم الشعوب القاطنة على ضفتيه من تواصلها مع بعضها البعض منذ القدم، سواء عن طريق التجارة أ والحروب التوسعية ، لقد تشكلت ما بين ضفتي البحر الأبيض المتوسط علاقات رسمية بين دوله وشعوبه تميزت بالعداء والتوتر خلال العصور الوسطى والحديثة، عكس الفترة المعاصرة التي عرفت التعايش والتواصل بين ضفتيه

فرغم تفوق العنصر الأوربي وتطوره خلال الفترة المعاصرة، بفعل الحركة العلمية والتكنولوجية التي ظهرت مع فجر الثورة الصناعية في أوروبا. التي انعكست مظاهرها العامة على المجتمع الأوربي. هذا التطور جعل شعوب الضفة الجنوبية تنظر بعين الشغف للحضارة الأوربية، ومنها الإيالة التونسية التي تأثرت حركتها الإصلاحية بالنهضة الأوربية خلال القرن التاسع عشر. وازداد التشوق للغرب أكثر في القرن العشرين. بفعل صدمة الاحتكاك التي تولد عنها رغبة فئة من التونسيين في الانفتاح عن الغرب، والأخذ من مدنيته وحضارته، ومسايرة العصرنة بفعل احتكاك التونسيين بالجالية الأوربية في تونس، أو عن طريق الزيارات الرسمية أو الرحلات التونسية لأوروبا أو البعثات التعليمية. فما هو أثر التواصل بين التونسيين والأوربيين على الفكر والعقلية التونسية خلال النصف الأول من القرن العشرين؟ وما هي مظاهر التأثير في الفكر الاجتماعي التونسي؟

### 1 - بواكير النهضة والتطلع التونسي على الحضارة الغربية:

تأثرت البلاد التونسية كغيرها من البلدان العربية بالنهضة الحديثة، والتي تجلت مظاهرها في التحولات العصرية التي حدثت في بعض البلدان العربية خلال القرن التاسع عشر، بفعل احتكاك العالم العربي بالغرب الأوربي<sup>1</sup>، بغية الخروج من دائرة الانحطاط والضعف التي كانت تتخبط فيها البلاد العربية، والوصول إلى التقدم الذي حققته الدول الغربية، بالاعتماد على التقليد والأخذ بالمناهج والأسس التي اعتمدت عليها الدول الأوربية المتطورة.<sup>1</sup> فقد أثر الفكر الأوربي الغربي تأثيرا وضحا في معالم الفكر العربي الإسلامي عامة والفكر التونسي خاصة في أواخر القرن التاسع عشر وبداية العشرين، باعتبار أن معظم البلدان العربية خضعت للاستعمار، والذي لم تسلم منه إلا بعد منتصف القرن العشرين عامة، بحيث أن الاستعمار الأوربي ترك أثرا بالغا على الجانبين الفكري والعلمي بمختلف مراحلها في البلدان الخاضعة له.<sup>2</sup>

إن الثقافة والفكر العصريين اللذين هبا على البلاد التونسية شكل منطلقا للفكر التونسي الحديث، بهدف التمدن وتوسيع دوائر العلوم والعرفان، وتمهيد طرق الثروة، وغيرها من الأسباب الأخرى، بحيث أن الاحتكاك الذي حدث بين التونسيين والغرب لم يكن في فترة وجيزة، بل تم ذلك على مراحل متفاوتة زمنيا.<sup>3</sup> فالاتصال الفكري والمادي الذي حدث بين النخبة التونسية المثقفة ونظيرتها الأوروبية عن طريق الزيارات المتعددة التي قامت بها النخبة التونسية المثقفة إلى الدول والممالك الأوروبية في فترات سابقة، جعلت نخبة من التونسيين تنادي بالنهوض بالبلاد التونسية من التخلف الاجتماعي والثقافي، قصد إخراجها من دائرة التخلف الفكري والاجتماعي والأساطير والخرافات المكتسبة.<sup>4</sup>

لقد تنبّهت الحركة الإصلاحية التونسية خلال القرن التاسع عشر للتباين الواضح بين المنظومتين الاجتماعيتين، الغربية المتطورة والتونسية المتخلفة، والمتناسبتين تناسبا عكسيا فيما بينهما، مما دعا رجال الحركة الإصلاحية إلى الاقتباس من مآخذ العالم الغربي المتطور، وتطعيم الفكر العربي الإسلامي من ثمرات الفكر الأوروبي في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية المختلفة بما لا يتعارض مع الشريعة الإسلامية. بما في ذلك مسألة الاقتداء بالتمدن الأوروبي.<sup>5</sup>

ومن أهم المسائل التي لفتت انتباه النخبة التونسية المثقفة في الغرب مثلا : مسألة المرأة الأوروبية، والتي أثارت إعجابهم من حيث السفر والتحرر والتعلم والثقافة ومساندتها للرجل، عكس المرأة العربية التي كانت محبوسة في البيت، بفعل الخضوع للتقاليد الموروثة في المجتمعات العربية.<sup>6</sup>

وقد شجعت السلطات الفرنسية بدورها هي الأخرى الغزو الثقافي، تحت دافع الانفتاح والتحرر والتمدن بنشر اللغة الفرنسية في أوساط المدارس الفرنسية، حتى تتمكن من السيطرة الفعلية على البلاد التونسية، باعتبار أن الإنسان العربي إذا تعلم اللغة الفرنسية أصبح أقل صعوبة وأكثر مرونة في تصرفاته وأفعاله.<sup>7</sup> فالتأثير الأوروبي في الوسط التونسي لم ينحصر في الجانب الفكري والاجتماعي، بل شمل أيضا الجوانب السياسية والاقتصادية الأخرى. وبناء على شهادة الجغرافي الفرنسي فرانسوا بونيارد

(François Bounniard) : "إن كل ملاحظ نابه أتيحت له فرصة زيارة أراضي السكان المحليين غداة الحرب أو على الأخص منذ السنوات القليلة الماضية، لا يملك إلا أن يندش التطورات التي عرفتتها التقنية الزراعية بفعل تأثير الأوروبيين."<sup>8</sup>

إن حرية الفكر التي بلغها الأوروبيون مثلت أحيانا مواضيع للنقاش والجدال في أوساط المفكرين المتفتحين بين القبول والرفض، وفي هذا الشأن نشرت جريدة الحاضرة التونسية مقالا في مطلع القرن

العشرين حول حرية الفكر والدين السائدة في أوساط المفكرين والفلاسفة الأوروبيين ، وموقفهم السلبي من العقائد والشرائع الدينية، لدرجة مبادرة ممثلو ذلك المذهب يعقد اجتماعات ومؤتمرات لمعالجة ونشر أفكارهم ، كما حدث في المؤتمر الذي عقد بتاريخ 24 سبتمبر 1904 بالعاصمة الإيطالية روما ومؤتمر مدينة بازل السويسرية، بحضور البابا نفسه ممثل للكنيسة الكاثوليكية وطوائف أخرى. إن مثل تلك الأفكار التي وصلت إلى التونسيين تعبر عن مدى التواصل بين الفكر الغربي والتونسي.<sup>9</sup> وعموما فإن الرحلات إلى أوروبا وانتشار التعليم والطباعة والاحتكاك بالأجانب في تونس كانت منافذ للاطلاع على الغرب.

## 2- تأثير الزيارات الرسمية التونسية لأوروبا في الفكر الإصلاحي التونسي:

بدأت الاتصالات الرسمية بين البلاد الفرنسية والدولة التونسية عام 1577م، وذلك بإرسال أول قنصل فرنسي لويس دارياس لتمثيل بلاده في الإيالة التونسية، بموجب قرار الملك هنري الثالث في 23 ماي 1577م. وتعمدت العلاقات السياسية بين البلدين أكثر في عهد الدولة الحسينية، خصوصا في فترة حكم حمودة باشا (1782-1814م).<sup>10</sup> هذا الأخير الذي تأثر بشخصيتي نابليون بونابرت في فرنسا ومحمد علي باشا في مصر.<sup>11</sup> وازدادت التواصل بين البلدين في منتصف القرن التاسع عشر باتصال البلاد التونسية بالدول الأوروبية بموجب جملة من العوامل السياسية، ومن ورائها عوامل حضارية، أثرت على المجتمع التونسي.<sup>12</sup>

## 2-1 الزيارات الرسمية وتأثيرها الفكرية والثقافية :

لقد تمخض عن الرحلات التونسية حركة تأليف لمشاهد التونسيين للمجتمعات الأوروبية، فأصبح من خلالها الزائر التونسي يكتب عن جوانب رحلته نحو العالم الخارجي، سواء في المشرق أو في المغرب، على غرار ما كتبه خير الدين التونسي "أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك"، وبيرم التونسي صاحب كتاب "صفوة الاعتبار"، ومحمد السنوسي صاحب "الرحلة الحجازية". فهذه الرحلات تعتبر مصدرا هامة في الدراسات التاريخية والجغرافية الاجتماعية السياسة والقوانين والنظم المختلفة في البلاد التونسية خلال القرنين الماضيين.

فقد كتب خير الدين باشا عن فكرة التواصل الفكري والأدبي بين الأوروبيين والعرب عامة والتونسيين خاصة، حيث ذكر بأنه قام بتعريب مؤلف حروب نابليون أثناء زيارته لباريس، وطبعه في

مطبعة الدولة التونسية.<sup>13</sup> وألف محمد بن الخوجة \* الرحلة الفليارية عام 1911م، والرحلة الناصرية عام 1913م، وعبد العزيز الثعالبي كتاب الرحلة اليمينية، محمد المقداد الورتقاني كتاب البرنس في باريس عام 1913م.<sup>14</sup>

فالرحلة التونسية التي قام بها أحمد باي عام 1846 إلى فرنسا تعتبر من أهم رحلات التواصل والاحتكاك بين البلاط التونسي والفرنسي ، والذي صاحبه خلالها المؤرخ أحمد بن أبي الضياف، حيث بيّن فيها هذا الأخير التفاوت الحضاري ما بين العالم الإسلام الشرقي ونظيره الغربي المسيحي.<sup>15</sup> فقد سافر خير الدين باشا إلى العديد من الدول الأوروبية.<sup>16</sup> وانبهر خير الدين باشا بالنهضة التي عرفتها الدول الأوروبية أشد الانبهار، بفعل المقومات المعرفية القبلية التي كان يمتلكها أثناء إقامته في إسطنبول التركية، ومنها معرفته للغتين الفرنسية والتركية اللتين ساعدته في التعرف والانفتاح على النهضة الغربية، كما ساعده منصب الوزارة الكبرى الذي تولاه في الملكة التونسية خلال فترة حكم أحمد باي في التعرف على الحضارة والتقدم الغربيين، إذ رافق هذا الأخير في زيارته إلى فرنسا عام 1846م. كما اتسعت معارفه<sup>17</sup> خلال إقامته بفرنسا مدة طويلة، حيث اقتضت منه بعض المهام التي كلفته بها الملكة \* أن يقيم في فرنسا ثلاث سنوات \* متصلة<sup>19</sup>، مكنته من توسيع معارفه وثقافته وإدراك أسباب التقدم الأوروبي،<sup>20</sup> في المجالات السياسية الاجتماعية، الثقافية، العلمية والتقنية التي حققها الفرنسيون. كما اطلع على الحياة الفكرية والأدبية من خلال اطلاعه على فلاسفة التنوير، أمثال: وفولتير وجون جاك روسو،<sup>21</sup> و مونتسكيو Montesquieu صاحب كتاب "روح القوانين"، الذي بيّن فيه أنماط الحكم الثلاثة، وهي الأنظمة الاستبدادية والملكية الدستورية والجمهورية<sup>22</sup>، كما ذكر بعض المفكرين منهم: بوفون Buffon وتيير Thiers و جون ستيوارت ميل الذي استشهد به مرة واحدة في كتابه الشهير، وغيرهم من المفكرين الفرنسيين والإنجليز والألمان، في حين أعرض عن ذكره دي توكفيل وقيزو لحسابات سياسية خاصة.<sup>23</sup>

لقد أدرك خير الدين التونسي أثر الاحتكاك والتفاعل بين الحضارات على تقدم الأمم والشعوب، ومنها الدول الأوروبية التي تطورت بفعل احتكاكها مع العالم الإسلامي بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية،<sup>24</sup> ذلك الاحتكاك الذي كان بحاجة إليه المسلمين باعتبارهم أنهم متخلفين خلال القرن التاسع عشر.



فالأفكار السابقة أثرت وساهمت في تنميه أفكار المصلح خير الدين التونسي التحررية مستقبلا، فبعد عودته من فرنسا وتعيينه من طرف محمد بايا على رأس وزارة البحرية التونسية عام 1857، خلالها دافع على عهد الأمان، كما ساهم في إعداد دستور 1861م عندما تقلد منصب رئيس المجلس الكبير (البرلمان)، الذي تم تأسيسه عام 1861م، وقد حذا حذوه زميليه رستم باشا والجنرال حسين في مشروعه الإصلاحية، رغم العراقيل التي كانت تواجه أفكاره وطموحه الإصلاحية. وازداد تأثره أكثر بالغرب عندما سافر إلى أوروبا مرة أخرى، حيث زار العديد من الدول، منها ألمانيا، فرنسا، بريطانيا، إيطاليا، النمسا، السويد، الدنمرك، هولندا وبلجيكا،<sup>25</sup> وألف كتابه الشهير المعروف بأقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، كما تجاذب خير الدين باشا أطراف الحديث مع دعاة الإصلاح الذين عايشوه، أمثال : سالم بوحاجب أحمد بن أبي الضياف، رستم باشا والجنرال حسين وبيرم الخامس. والنتيجة الحتمية هي التوصل إلى الفرق الشاسع الذي يفصل ما بين الدول الأوروبية المتقدمة والعالم الإسلامي المتخلف، بما فيه البلاد التونسية. وعليه فإن الأمر في نظر خير الدين التونسي كان يتطلب الانفتاح على الغرب قصد الأخذ بأسباب النهضة والتطور التونسي<sup>26</sup>.

لقد استخلص خير الدين بأن أسباب التقدم الأوروبي في مختلف المجالات يعود إلى طبيعة النظم السياسية الأوروبية المبنية على الحرية والمساواة والعدالة الاجتماعية، واحترام السكان للحكام والقوانين المطبقة. فالحرية والعدل والمساواة بين المواطنين وتحديد سلطة الحاكم تحد من الظلم والتسلط، مما يؤدي إلى اطمئنان الأهالي ويدفعهم في النهاية إلى التقدم.<sup>27</sup> واستخلص بأن أسباب تقدم الدول الأوروبية أساسه قوة المعارف الناتجة عن تنظيم المؤسسات عن الحرية والعدالة<sup>28</sup>.

كانت نظرة خير الدين التونسي الإصلاحية هي الاقتباس من الحضارة الغربية ما ينفع الأمة الإسلامية، باعتبار أن ذلك كان معمولا به سابقا، وهو لا يتعارض مع الشريعة الإسلامية، لأن الفكر المؤسساتي الأوروبي كان دائما يقارب مبادئ الشريعة الإسلامية، لاسيما الحرية والعدالة الإسلامية، وحتى الحصول على ما نحتاجه منهم من أكل وملبس وأسلحة. وبذلك فإن خير الدين باشا وافق على نقل الفكر الأوروبي نحو البلدان التونسية بما في ذلك البلاد التونسية، نظرا لحاجة العالم الإسلامي إلى عناصر النهضة في تلك الفترة.<sup>29</sup>



إن الاحتكاك بالعالم الغربي تجسد أيضا في سفر الجنرال حسين إلى أوروبا وأمريكا، كما أن اطلاع التونسيون على الفكر الغربي عن طريق ما دونه رفاة الطهطاوي في مؤلفاته،<sup>30</sup> وقد أكد ابن أبي الضياف وخير الدين التونسي اطلاعهما على مؤلفات رفاة الطهطاوي وما كتبه عن زيارته في فرنسا.<sup>31</sup>

## 2-2 الرحلات الفردية وأثرها على فكر النخبة التونسية:

لقد تأثر محمد بيرم الخامس هو الآخر بالغرب، من خلال زيارته للدول الأوروبية العديد من المرات بدافع العلاج المرضي (مرض الأعصاب)، والقيام بمهام سياسية أخرى مابين 1292هـ/1295هـ في الولايات الإيطالية وفرنسا وكنكتر<sup>32</sup>، مكنته من الاطلاع على الحضارة الغربية، ودون في كتابه عادات وتقاليد الشعوب عامة، ومنها العادات والتقاليد الأوروبية، ففي اللباس ذكر محمد بيرم بأن لباس الرجال الفرنسيين والإيطاليين أصله واحد، لكن فيه اختلافات جزئية، لكن الرفاهية في اللباس تكون أكثر عند الفرنسيين، خاصة النساء الفرنسيات اللاتي كن أكثر تبذرا وتزيينا في اللباس<sup>33</sup>. كما أن النساء الفرنسيات يضعن مساحيق ودهون في وجوههن ويتفاخرن على بعضهن البعض بالألوان المختلفة بسبب السهر والغرام مع الأحبة.<sup>34</sup>

لقد أبدى محمد بيرم الخامس إعجابه الواضح بالمرأة الأوروبية عامة، والانجليزية خاصة، من حيث تعلمها ونجاحها في تربية أولادها، بأنهن تنشئن أولادهن على التربية والتفطن العلمي، والابتعاد عن الأخلاق الذميمة، كما جاء على حد قوله: "تربية الأم لأولادها حيث ينشئون على التهذيب والتفطن إلى التعليم من غير تعب حتى أنهم كثيرا ما يتعلمون الأحرف في التهذيب والتفطن ومبدأ القراءة لمجرد التربية فيما تدمجه الأم أو المربية الصغيرة مع النظافة والإبعاد عن الأخلاق الذميمة وكل أوروبا على هذا النحو لما في النساء في التعليم الحسن".<sup>35</sup> كما سافر الشيخ محمد قبادو إلى إيطاليا والأستانة عائدا إلى تونس عام 1841م، حيث كان لسفره انعكاسا على فكره، مما جعل المشير أحمد باي يستعين به في تأطير مدرسة باردو الحربية مدرسا للغة العربية، ذلك المعلم الحضاري الذي تأسس عام 1840م، كما عهد إليه الإشراف على إدارة المدرسة المذكورة، والقيام بترجمة بعض الكتب الأوروبية المتخصصة في الفنون الحربية، التي بلغ عددها أربعين كتابا مترجما، ناهيك عن ترجمة بعض مخلصات الأساتذة الأجانب.<sup>36</sup>

وحتى الشيخ سالم بوحاجب هو كذلك أعجب كثيرا بالحضارة الأوروبية، وفتن بها وبالفتيات الإيطاليات أثناء زيارته مدينة ليفورنه الإيطالية، لدرجة أنه ألف أبيات شعرية يتغزل بها في شأن الفتاتين الإيطاليتين، المعروفتين باسم صوفيا وماريا، وأهم ماجا فيها:

بروحي الدرتان التويمان      هما في سن سبع مع ثمان  
وسن البدر ذاك أعجيب      إذا ملأ بإشراق جناني...<sup>37</sup>

ونتيجة تعلقه بالفتاتين البالغتين سن الخامسة عشر من عمرهما، فقال في كل منهما عل حدا:

إلى صوفية الصوفي يصبو      ويؤثرها على الحور الحسان  
وفي مريانة ماريت صحيي      فلم يكتب محبتها لــــــاني  
أحبهمــــــا فكل حل مني      محل الروح من بدن الجبان  
ولو أنني أقول مكان روحي      خشيت عليهما ضرر الطعان

إن الشيخ بوحاجب تمادى في تعلقه بالفتاتين الإيطاليتين، مما جعله يؤلف قصيدة أخرى في شأنهما، تعبيرا لحبهما<sup>38</sup>. ومن هذا يمكن استخلاص مدى تأثر الشيخ سالم بوحاجب بالجمال الإيطالي، كغيره من الشباب التونسيين الذين وفدوا على البلاد الأوروبية وافتنوا بالجمال الأوربي، الأمر الذي جعله يتخلى عن الفتيات التونسيات ويعجب ويتغنى بالأوربيات.

أما محمد السنوسي الذي عاش ما بين 1850-1900 م فإنه كتب عن الحضارة الغربية، وتأثر بها، ودون في شأنها كتابه المعروف "بالاستطلاعات الباريسية"، وقارن فيه بين مجدي الحضارة الإسلامية والفرنسية، معتبرا أن التياترو (المسرح) مكان لتهديب الأهالي، والفن لتهديب الأخلاق، في الوقت الذي ذكر بعض المفاصد الأخلاقية والاجتماعية مثل السرقة، التسول والبغاء وغيرها من المفاصد الشائعة في المجتمعات الأوروبية.<sup>39</sup> إذ وصف سكان نابولي التي أقام بها فترة زمنية بأنهم لصوص المهرة على قوارع الشوارع.<sup>40</sup>

فمحمد السنوسي صاحب مؤلف الاستطلاعات الباريسية، إثر قيامه برحلة إلى العاصمة الفرنسية باريس، بهدف زيارة معرض باريس عام 1889، والذي لخصه في أربعة عناصر كبرى، ففي المبحث الثاني من الكتاب تحدث السنوسي عن الاجتماعات والزيارات الشخصية والمنافع والأعمال الخيرية، التي عرض فيها العادات الفرنسية ومقارنتها بالعادات التونسية، ووصف المسارح ومجالس الرقص والغناء وبعض العادات مثل التدخين.<sup>41</sup>

لم يكتف الشيخ محمد السنوسي بوصف المدن الأوربية التي زارها ، والإشارة للنظم والقوانين السائدة فيها ، بل أعجب أيضا بمظاهر العمران والمنزهات والحمامات والحدائق التي تزخر بها المدن الأوربية ، إضافة إلى ذكر بعض العادات الاجتماعية ، حيث تعرض إلى الطفولة المسعفة في الدير المخصصة لها ، والمعروفة باسم أسيستو دي تردوميلي ، وما أكثر هذه المراكز في البلدان الأوربية ، التي تحمي الطفولة التي تكون في غالب الأحيان ناتجة عن العلاقات غير المشروعة بين الوالدين.<sup>42</sup> لقد أعجب محمد السنوسي كثيرا بالحضارة والنظم الاجتماعية السائدة في فرنسا ، خاصة بالميترو والجرائد التي بالغ عددها في تلك الفترة خمسة وخمسين جريدة متنوعة. وخلال فترة إقامته في إيطاليا تعلم اللغة الإيطالية وتأثر بها ، وأصبح يردد بعض العبارات الإيطالية على مسامع الطلبة أثناء إلقاء دروسه بجامع الزيتونة ، بعد عودته للديار التونسية.<sup>43</sup>

ومن أهم الرحلات التي ظهرت قبل الحرب العلمية الأولى هناك رحلة محمد المقداد الورتقاني ، الذي قام برحلة نحو فرنسا وسويسرا ، هذه الرحلة تم طبعها في كتاب "البرنس في باريس رحلة إلى فرنسا وسويسرا 1913" ، التي تعد من أهم الرحلات التي تعرف الإنسان العربي بالمجتمع الغربي ، وأحد نماذج اهتمامات النخبة العربية المثقفة عامة والتونسية بالخصوص في التطلع على الدول والمجتمعات الغربية ، والتي يبرز من خلالها مدى تأثير الحضارة الغربية على النخب العربية وأثرها في التحولات الفكرية خلال القرن الماضي. إن فترة إقامة محمد المقداد ثلاثة عشر يوما في فرنسا<sup>44</sup> جعلته يتأثر بفنون المسرح والرسم ، و يعجب بجمال المرأة الفرنسية ، حيث وصف جمالها وبياض بشرتها ، وبيّن مكانتها في المجتمع الفرنسي على حد قوله : " المرأة في فرنسا كل شيء ولها كل شيء ، فالجوهر والحريير والزينة ، وإن شئت قلت المال للمرأة ، والتقدم للمرأة والفؤاد للمرأة ، والمنزل للمرأة والنفوذ للمرأة ، والحرية للمرأة " ، لأنه جالس الفرنسيات وتجاوز معهن في مسائل تعدد الزوجات والحجاب والسائدة في العالم الإسلامي.<sup>45</sup>

إن محمد المقداد الورتقاني بالغ في إعجابه بمدينة باريس الفرنسية ، وغالى في وصفها على حد قوله : " باريس هي بابل الساحلية ، وما السحر إلا بحاضرتها الغير المألوفة وآدابها الغير المعروفة. عند الأجيال الغابرة ، بل وأكثر أمم الحاضرة. [فباريز] إذا سميت عاصمة فهي أم العواصم ، وإن قيل فيها قاهرة فهي قاهرة اسما ومسمى. وإن عبروا عنها بالحاضرة ، أو بالمدينة الزاخرة ، فالنسب أن تدعى بابل الساحرة □ " . ووصف لنا باريز بعمرانها وإداراتها وخصائص كثير تتصف بها مثل المعابد والملاجئ

ومتحف اللوفر ومدرسة اللغات الشرقية<sup>47</sup>، والمكتبة الأهلية ببباريس، ووصف لنا باريز بعمرائها وإداراتها وخصائص كثيرة تتصف بها<sup>48</sup>، وقد أعجب الورتتاني كثيرا بالمجتمع الفرنسي من الوقار والتربية العالية المفعمة بالآداب واحترام رأي الطرف الآخر، وغيرها من المعاملات الأخلاقية<sup>49</sup>.

فالحركة الفكرية الإصلاحية التي سادت في القرن التاسع عشر امتدت تأثيراتها إلى مطلع القرن العشرين، وساهمت في بناء الحركة السياسية والفكرية، إذ لم تنقطع الصلات بين الأساس الأول الذي كان على رأسه خير الدين التونسي والنخبة التي عايشة الإصلاحات التونسية، مروراً بنخبة من رجال الفكر، أمثال: بشير الصفر، علي باش جانبة، الشيخ عبد العزيز الثعالبي والطاهر حداد. وإن كانت الأفكار الجديدة التي تبنتها النخبة المستنيرة الجديدة تتماشى مع السياسة الاستعمارية الجديدة بعد الاحتلال الفرنسي للبلاد التونسية، وحتى الحركة الوطنية التونسية خلال النصف الأول من القرن العشرين تبنت أفكار الحركة الإصلاحية التي نشطت في القرن التاسع عشر، التي تمثلت في بعض المطالب الاجتماعية كرفع الظلم والاستبداد الاستعماري، والدفاع عن حقوق المواطنين التونسيين، والمطالبة بالمساواة أمام القانون في الواجبات وفي الأجور والضرائب مع المعمرين الفرنسيين والحريات العامة.

### 3- البعثات الطلابية والانبهار بالثقافة والمدنية الغربية:

كانت سياسة المملكة التونسية خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر تهدف إلى توصيل التعليم العصري للطلاب التونسيين، عكس السياسة المصرية في مصر في عهد محمد علي باشا، فالأخير قام بنقل الغرب إلى الشرق بواسطة الإرساليات العلمية، بينما اعتمد خير الدين باشا تحت سلطة الباي التونسي على نشر العلوم والمعارف الغربية بواسطة المؤسسات العلمية وتنشيط حركة الترجمة<sup>50</sup>، لذلك عمل أحمد باي على تأسيس مدرسة باردو الحربية عام 1840، للإطلاع على الحضارة الغربية، ومواكبتها من خلال تدريس العلوم التقنية واللغة الفرنسية<sup>51</sup> إلى جانب العلوم الدينية، غير أن تلك السياسة أصيبت بطفرة قبل فترة الاحتلال، لذلك بدأت البعثات الطلابية تتجه نحو البلدان الأوربية خاصة فرنسا.

ومن الزمرة السابقة الذكر مثلاً: عبد الجليل الزاوش الذي قطع صلته بالتقاليد العامة التي كان يتبناها الشباب التونسي، بحكم أنه كان ينتمي لعائلة برجوازية، فبعد أن تعلم في مدرسة القديس شارل، سافر إلى فرنسا لمواصلة، ونال شهادة الحقوق، حيث درس في جامعة السربون وكوليج دي



فرنس، ونتيجة تأثره بالمدينة الغربية الفرنسية كاد أن يتحول إلى أفريقي ويتخلى عن جنسيته الأصلية، وكان يرى وجوب تخلي التونسيين عن العادات البالية عند فهمهم ومعرفتهم للمدينة الغربية.<sup>52</sup>

كما أن علي بوشوشة (1859-1917) ذي الأصول الجزائرية، وهو الآخر من الطلبة التونسيين الذين تم إرسالهم ضمن البعثات العلمية إلى إنجلترا، ليطلع على لغة شكسبير، حيث قضى بها ثلاث سنوات من عمره، ليعود بعد ذلك إلى تونس عام 1881. وأهم ما أنجزه في البلاد التونسية جريدة الحاضرة عام 1881، وأشرف على تسيير شؤون المدرسة الخلدونية 1896. وساهم في الحركة التجديدية في جامع الزيتونة مع نخبة من المثقفين أمثال عبد العزيز الزاوش وأحمد الغطاس<sup>53</sup> وحسن حسني عبد الوهاب.<sup>54</sup>

لقد أعجبت النخبة التونسية العصرية كثيرا بالمدينة والنظم الاجتماعية السائدة في البلاد الفرنسية، لدرجة التأثير بما رأوه أثناء زيارتهم إلى فرنسا. ففي أحد الرسائل التي بعثها أحمد العنكي الذي كان يشتغل بأحد المحاكم الاستثنائية إلى أحد أصدقائه في أوت 1928، يبين من خلالها مدى تأثره بالمدينة الفرنسية، بقوله: "المدينة الأوربية بقطع النظر عن مدينتها وعيوبها التي لا تنكر سرح حيوي للشعوب المتأخرة... ولا حياة بدونها ولوكره الكارهون". وأن الأمة التونسية غير مؤهلة لمصارعة الدول الأوربية، وأن السبيل الوحيد للتونسيين للوصول للرقى والتقدم والمدينة الأوربية هو إرسال قوافل من الطلاب إلى المعاهد والجامعات الأوربية للاستفادة من المدينة الأوربية.<sup>55</sup>

وشجعت السلطات الفرنسية هجرة الطلبة التونسيين من مختلف الجنسيات المقيمة في تونس للسفر إلى فرنسا، لدرجة أن بعض التونسيين أصبحوا يطالبون بحق السفر إلى فرنسا، وتشجيع الإرساليات الطلابية إلى أوروبا في فترات العطل المدرسية، وذلك بإرسال مجموعات من الشباب في مجموعات يتراوح تعدادها بين عشرة وخمسة عشر طالبا خلال المواسم الصيفية. ومن هؤلاء علي باش حانبه، بهدف الإطلاع على المدينة الغربية، باعتباره أنه كان من أنصار التمدن الغربي والتعلم باللغة الفرنسية، والتي كان شغوفاً على خدمتها ونشرها بين المواطنين التونسيين، وهذا من خلال كلامه في جريدة التونسي: "وهذا ما كنا نسعى إليه بحرص شديد بدليل ما بذلناه من مجهوداتنا في نشر اللغة الفرنسية بين مواطنينا وما قمنا به من الدعوة بتوجيه الإرساليات المدرسية نحو فرنسا... حتى تعم بيننا المدينة الغربية التي نتجه نحوها بواسطة المدرسة..."<sup>56</sup>

من المعروف أن البعثات الطلابية التونسية ظلت تتجه نحو فرنسا، وإن شهدت العملية ذاتها انقطاعا قبل الحرب العالمية الثانية، حيث نشطت قوافل الطلبة لزيارة فرنسا تحت رئاسة السيدين سردان وأحمد العنابي الذي ينحدر من أصول جزائرية، بصفتهم رئيسا قداما ثانوية كارنو، وقداما المدرسة الصادقية على التوالي، فقد طالبا السلطات المخولة بتنظيم قوافل طلابية كل سنة نحو فرنسا، قصد التعرف على خيراتها وثرواتها وجمال تلك البلاد. لأجل ذلك طالب السيد العنابي كل من الباي والمقيم العام الدعم والمساعدة المالية المقدّر ب 50000 فرنك، لسد تكاليف الرحلة اتجاه باريس والمقررة بتاريخ 15 جويلية 1947 م.<sup>57</sup>

وبالفعل فقد قامت السلطات الفرنسية بتشجيع التونسيين كغيرهم من العناصر الأخرى لمواصلة دراساتهم في فرنسا، وذلك بواسطة المنح الدراسية وتقديم الإيواء والتسجيلات الدراسية. فخلال زيارة الأمين العام للحكومة التونسية لمأوى الطلبة التونسيين المقيمين في فرنسا بتاريخ 2 مارس 1947م، حيث أوصى الأمين العام بضرورة تقديم مساعدات للطلبة المتواجدين في الديار الفرنسية، وبالفعل فقد قامت الإقامة العامة في تونس بتقديم قروض للطلبة المقيمين في فرنسا مقداره 7500000 فرنك، لإتمام دراستهم العليا، وقرض آخر قيمته اثنان مليون فرنك فرنسي للجمعيات الفرنسية لمساعدة الطلبة التعليم العالي.<sup>58</sup> والحقيقة أن مساعدة الطلاب التونسيين لم تقتصر على الجهات الرسمية فقط، بل ساهم فيها شخصيات فرنسية، ومن هؤلاء المفكر قاستون فالون، المتعاطف مع التونسيين، والذي كان عرف بالدفاع عن المشاكل الاجتماعية من خلال كتاباته الإعلامية. فأقدم هذا الأخير على تأسيس نقابة بمدينة اكس بروفانس، لطلبة الشرق الوافدين على فرنسا والتكفل بهم طيلة المدة الدراسية.<sup>تدوين</sup>

## 2-1 المدرسة الصادقية قاعدة خلفية للبعثات الطلابية نحو فرنسا:

مع نهاية القرن التاسع عرفت البلاد التونسية تكوين عنصر جديد من المتعلمين المتخرجين من المدرسة الصادقية مزدوجي الثقافة الإسلامية والغربية، بتخرج الطبقة الأولى منهم عام 1297هـ / 1882م، فكان العديد من الطلبة المتخرجين من الصادقية يواصلون تعليمهم في فرنسا<sup>60</sup>، خاصة النجباء منهم<sup>61</sup>. وتشير المعلومات التاريخية أن المدرسة الصادقية أرسلت بعثتين علميتين قبل الاحتلال الفرنسي للبلاد التونسية، إحداها نحو العاصمة العثمانية اسطنبول، والثانية نحو باريس الفرنسية بهدف إتمام دراستهم المختلفة هناك. تلك الإرساليات التي لم تدم إقامتها طويلا، ليعود أصحابها بعد صدمة الاحتلال إلى الديار التونسية، وأصبحوا يشتغلون مترجمين في إدارة الاحتلال.<sup>62</sup> ومن ضمن

الاراساليات العلمية نذكر إرسال ستة طلاب نجباء من المدرسة الصادقية إلى مدرسة سان لوي بفرنسا لمواصلة تعليمهم عام 1879، ثم أُرِدفت بإرسالية أخرى عام 1881م، وتم إرجاعهم عام 1882، حيث استعانت بهم الإدارة الاستعمارية كمتترجمين ومساعدين في خدمتها. وفي عام 1883 لما كان التعليم بموجب المدارس الابتدائية العالية تم إرسال طالبين اثنين إلى فرساي لإكمال دراستهم هناك.<sup>63</sup>

الأكد أن أهمية النخبة التونسية المثقفة قد ازدادت أعدادها بعد الاحتلال الفرنسي لتونس 1881، حيث لقيت العملية استحسانا من طرف السلطات الفرنسية، وذلك بإرسال بعثات طلابية منظمة على رأسها رئيس يشرف على تنظيمها وتوجيهها، قصد تكوين نخبة مثقفة بالثقافة الفرنسية من التونسيين المتفرنسين للاستعانة بهم في بعض الوظائف.<sup>64</sup> وقد اتضح تهافت طلاب المدرسة الصادقية بعد عودة بعض الطلبة من المدارس الفرنسية، مثل البشير صفر، محمد المعتمري، ومحمد الأصرم ومصطفى دنقرلي، الذين أصبحت لهم مكانة هامة في المجتمع التونسي، بفعل تقلدهم مناصب وظيفية في المؤسسات التعليمية والإدارة العمومية، لذلك عمل الشباب التونسي على الاجتهاد من أجل الحصول على قبول للدراسة في المعاهد والجامعات الفرنسية.<sup>65</sup> ومن جملة هؤلاء مصطفى الكعك، الذي كان درس بجامعة إكس بروفانس بعد حصوله على شهادة البكالوريا، وأصبح وزيرا عام 1947.<sup>66</sup>

وما تشير إليه الإحصائيات الرسمية، فإن عدد الطلاب الذين أرسلتهم المدرسة الصادقية إلى فرنسا لمواصلة مشوارهم الدراسي في الكليات والمعاهد الفرنسية ما بين 1880 إلى غاية الاستقلال 1956م ارتفع من 12 طالبا سنة قبل الحماية الفرنسية ليصل عددهم إلى 1133 طالبا بعد ستة وسبعين سنة، منهم: 500 طالب تونسي، والباقي من جنسيات أخرى، أي الفرنسيين وبقية الأوربيين واليهود، وهو ما يمثل نسبة 44,13%. وهؤلاء الطلبة هم الذين قادوا نضال الحركة الوطنية التونسية بعد الثلاثينات من القرن العشرين، وكان لهم دور في بناء المجتمع التونسي المعاصر.<sup>67</sup>

ومن النخبة الذين أرسلتهم المدرسة الصادقية للدراسة في أوروبا مثلا: علي بوشوشة الذي تم إرساله ضمن بعثة طلابية إلى إنجلترا قبل الحماية الفرنسية لتونس 1881،<sup>68</sup> كغيره من الطلبة الذين التحقوا بالمؤسسات العلمية الفرنسية قصد مواصلة تعليمهم العالي في أواخر القرن التاسع عشر، ومن هؤلاء الطلبة نذكر: البشير صفر، محمد الأصرم، علي باش حانبة وعبد الجليل الزواش. وأثناء دراستهم في المهجر حدث لهم احتكاك بالعقلية الأوروبية، نتيجته الحتمية هي الاستفادة من جوانب مختلفة في مختلف الميادين.<sup>69</sup>

ففي مطلع القرن العشرين نجد علي باش جانبه باعتباره أحد المتأثرين والمتطلعين على التمدن الفرنسي، يعبر عن إعجابه بالمدنية الأوروبية بقوله: "يلزمنا أن ننتظر أمدا طويلا حتى تعمم بيننا المدنية الغربية التي نتجه نحوها وسط المدرسة ذلك بينما السفر والسياحة يسهلان الطريق في التربية بالتمرين والتدريب" عن أهمية إرسال بعثات طلابية من تونس إلى فرنسا.<sup>70</sup> واستمرت الرحلات في تلك الفترة، ونذكر منها رحلة محمد بن الخوجة التي اتجهت نحو فرنسا عام 1318هـ/ 1900 م بمناسبة معرضها الدولي، فحرر خمس رسائل في جريدة الحاضرة، وصف فيها باريس وما شاهده هناك مساهما بمد الثقافة العربية ونظم وحالة الحضارة الفرنسية، وتم طبع رسالته في كتاب سلوك الإبريز في مسالك باريز<sup>71</sup>، وكان محمد بن الخوجة اقتدى برفاعه الطهطاوي في مؤلفه تخليص الإبريز في وصف باريس. وساعدت الحرب العالمية الأولى بفضل التقلبات والتغيرات العالمية وما تولد عنها من أفكار مختلفة على تنمية الفكر العام في البلاد التونسية.<sup>72</sup>

لقد ظل الطلبة التونسيون المتخرجون من الصادقية يتوافدون على فرنسا لمواصلة تعليمهم خارج تونس، فعبد الرحمان الكعك هو الآخر سافر إلى فرنسا عام 1926م لمواصلة تعليمه في الجامعات الفرنسية، بداية بجامعة السوربون، ليلتحق بعدها بمعهد اللغات الشرقية وكوليج دي فرانس، وختاما بمعهد للدراسات العليا. وخلال تلك المرحلة اطلع على العلوم والأدب المقارن، وتعرف على مآثر الغرب من العرب، وما أخذ العرب عن الغرب لاسيما في الفترة المعاصرة.<sup>73</sup> لقد تأثر عثمان الكعك كغيره من الشباب التونسي بالمدنية والتطور الغربي كما ورد في قوله: "فزال من نفسي الإعجاب بالآداب الأجنبية، وطهرت عقلي من مركب النقص الذي يجعلني أفضل أدبا بعينه لأنني أجهل غيره من الأدب..."<sup>74</sup> وبعد عودته للبلاد التونسية، تقلد العديد من المناصب، منها الشغل في إذاعة تونس الحرة، حيث صخر جهده للعديد من المسائل، لاسيما المسائل الاجتماعية، أبرزها مسألة جماعة تحت الصور.<sup>75</sup> ونتيجة تهافت الشبيبة التونسية على المدارس الغربية، تدخل محمد الخضر حسين ذو الأصول الجزائرية في هذه المسألة، واعتبر أن إرسال البعثات الطلابية إلى الجامعات الأوروبية من طرف أسرهم دون تلقيهم العلوم الدينية من أجل الحصول على بعض المناصب والوظائف العليا يعد إكمال مشوارهم الدراسي في أوربا قد يحيدهم عن عقيدتهم، حيث تتوارى عليهم الشبهات في المدارس الأوروبية، وعند عودتهم إلى بلدهم يصفون آباؤهم بأنهم يعيشون عادات بالية.<sup>76</sup>

وعموما فإن البعثات العلمية التونسية نحو فرنسا والدول الأوربية الأخرى مع نهاية القرن التاسع ومطلع القرن العشرين ساهمت في نقل الأفكار الاجتماعية. فقد سجل ونقل هؤلاء العائدون مختلف مظاهر القدم والتطور في الدول الغربية من حقوق الإنسان والحريات العامة والتطور في مختلف المجالات، لاسيما التطور الاجتماعي وغيره من المظاهر الثقافية والفنية والعلمية.<sup>77</sup>

ومن المعلوم أن المدارس التونسية إلى جانب مهنة التعليم التي كانت مخولة بها، فإنها كانت تبرمج رحلات من تونس نحو فرنسا للتعرف والاستكشاف على البلاد الفرنسية والاضطلاع عليها، حيث قامت هذه المدارس بإرسال سبع رحلات طلابية إلى فرنسا . وحتى جمعية قداماء مدرسة كارنو التي كانت تقبل التونسيين الراغبين في زيارة البلاد التونسية.<sup>78</sup> ومنها الإرسالية السابعة التي نظمها جمعية قداماء معهد كارنو، وعلى رأسها ألفريد نيكولا مدرس اللغة العربية بمعهد كارنو وزميله حمودة بوسن، اللذان استطاعا نقل حوالي 350 طالبا تونسيا لزيارة فرنسا، تحت إشراف المقيم العام الفرنسي ووزارة الخارجية الفرنسية، بهدف اطلاعهم على الحضارة والمدنية الفرنسيتين، وإحداث تلقح للشباب التونسي وتشبيهم بالمدينة الغربية، وتفعيل سياسة التقارب بين العنصرين الفرنسي والتونسي<sup>79</sup> والمبرمجة ابتداء من 13 جويلية إلى غاية 09 أوت 1929، لزيارة العديد من المدن والمعالم الفرنسية، منها: مرسيليا، نيم، بومي، تولوز، الوشون، البو، بوردو وباريس.<sup>80</sup>

إن رغبة الطلبة التونسيين لم تقف عند أوروبا فقط، بل توسعت رغبتهم للدراسة في الولايات المتحدة الأمريكية أيضا، مما جعلهم يقدمون طلبات للقنصل الأمريكي بغية الدراسة في الجامعات الأمريكية، كما جاء في نص الرسالة التي بعث بها القنصل الأمريكي في تونس للمقيم العام الجنرال ماست MAST عام 1944، لي طرح عليه ذلك الأمر غير ممكن في تلك الفترة<sup>81</sup>، بسبب تزامنه مع نهاية الحرب العالمية الثانية. والحقيقة أن الإشراف على الطلبة التونسيين وتقديم المنح الدراسية لهم ظل متواصلا حتى منتصف القرن العشرين، فخلال الموسم الدراسي 1948/1949، خصصت الإدارة العامة للشؤون الثقافية خمس منح دراسية للطلبة التونسيين، لمواصلة دراستهم العليا في مختلف التخصصات بالجامعات الفرنسية، وهم عبد المولى منصف، بن عثمان أسعد، بويحي محمد، عبوز علي وبن عبدة محمد.<sup>82</sup>



تنوعت سبل احتكاك الشباب التونسي بالفكر والثقافة الفرنسية، عن طريق الإرساليات العلمية والتمرن والتدريبات المختلفة في المراكز الفرنسية، حيث سمحت وزارة الأشغال العمومية والنقل للتونسيين والمغاربة الغير حاملين للجنسية الفرنسية بالتدرب في البحرية الفرنسية.

لقد أحصت التقارير الأمنية الفرنسية عام 1947 م حوالي 16 طالبا، منهم الحبيب بورقيبة الذي حل بالجهة بتاريخ أول أفريل من نفس السنة، <sup>□□</sup> وأظهرت بعض الوثائق الأرشيفية تواجد 250 طالبا تونسيا عام 1947م في البلاد التونسية، يزاولون دراستهم في فرنسا، منهم 200 طالبا في العاصمة باريس وحدها، و50 طالبا آخرين موزعين على مختلف المقاطعات الفرنسية التالية (تولوز، قرونوبل، بوردو، ليون، سانت ايتيان، الراون ومون بيليي).<sup>84</sup> في الوقت الذي بلغ فيه عدد طلبة المغرب 95 طالبا عام 1947م.<sup>85</sup> بينما سجلت إدارة التعليم العام للموسم الدراسي عام 1946/1947م حوالي 163 طالبا، منهم 54 مسجلين بصفة دقيقة، كانوا يزاولون دراساتهم العليا في مختلف الكليات الفرنسية للآداب والحقوق، العلوم، الهندسة، ومدارس اللغات الشرقية، الهندسة، العلوم السياسية، العلوم الاجتماعية وغيرها من المدارس الأخرى، في مختلف المناطق الفرنسية بباريس، قرونوبل، بوردو، مرسيليا، مون بيليي، تولوز، ستراسبورغ، رومبواي، وغيرها من المناطق الفرنسية.<sup>86</sup> إن البلاد التونسية مرت بالنهضة الحديثة، وسبقت الكثير من البلدان العربية في النهضة المعاصرة، وهذا ما تؤكدته الإصلاحات السياسية التونسية في مطلع القرن التاسع عشر بقيادة المصلح خير الدين التونسي. والحركة الفكرية والإصلاحية التي عرفت بها البلاد في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

لقد تأثرت الحركة الفكرية والإصلاحية بالغرب الأوربي، نتيجة الاحتكاك الذي حدث بين صفتي المتوسط، بالفعل الزيارات الرسمية والفردية وإرسال البعثات الطلابية التونسية نحو أوروبا. وازداد ذلك الاحتكاك أكثر بعد ( الحماية) الفرنسية على تونس 1881، بفعل الاحتكاك مابين السكان المحليين التونسيين والجالية الأوربية المقيمة في المملكة التونسية. لاشك أن هجرة التونسيين إلى عواصم الغرب الأوربي عامة والفرنسية خاصة أثرت تأثيرا واضحا في الفكر والذهنية والمعاملات الشخصية لدى التونسيين، اتضحت ملامحها خلال النصف الأول من القرن العشرين، وهذا ما يؤكد علي باش حانبه المحسوب على جماعة الشبان التونسيين، باعتباره واحد من الأوائل الذين تأثروا بالثقافة والفكر الفرنسي، محاولا توضيح تأثير الحضارة الغربية على الشباب التونسي الوافد على فرنسا، كما جاء



حديثه: " أما نتيجة هذه السياحة مهمة لأن شبابنا سيقفون على أشياء كثيرة كانوا لا يفهمونها وهم من الوجهة الأدبية سيحرزون على جملة من الفوائد، ... وسيعودون منها يحملون في أنفسهم كما حملناه لها نحن كبارهم في السن أجمل ذكرى ويشعرون في أفكارهم بانعطاف حقيقي اتجاه هذه الأمة الراقية".

إن الشباب التونسيين العائدين إلى بلادهم من فرنسا، كانوا يروون ما لاحظوه من تقدم في المجتمعات الغربي، ويزرعون الأفكار التي تأثرت بها نفوسهم، وبذلك يتم الإسهام بصورة غير مباشرة في نقل الثقافة والمدنية الغربية في البلاد التونسية. إن الزيارات التونسية إلى البلدان الأوربية، وخاصة فرنسا أنتجت رصيда هاما في الجانب العلمي والفكري، فهي تعتبر مراجع هامة في الدراسات الأنثروبولوجية والاجتماعية الأوربية، باعتبارها تعكس صورة المجتمع الأوربي في بداية القرن العشرين.

نتيجة لارتفاع عدد المثقفين التونسيين الذين تلقوا تكوينا غربيا، من مهندسين، محامين، أطباء، صيادلة وأساتذة، هذه الفئة التي قامت بدور فعال في التطور السياسي والاقتصادي والاجتماعي التونسي خلال القرن العشرين. لقد برزت النخبة التونسية المثقفة بالثقافة الغربية، وشكلت قوة فكرية وسياسية، قادت الأمة التونسية قبل تحقيق الاستقلال التونسي وما بعده. مشكلة الطرف الفعال والقائد في الازدواجية، ضد التيار التقليدي المحافظ.

### الإحالات:

<sup>1</sup> المحجوبي علي، النهضة الحديثة في القرن التاسع عشر لماذا فشلت بمصر وتونس ونجحت باليابان، ط1، سراس، تونس: 1999، ص72.

<sup>2</sup> جدعان فهمي، حصاد القرن، المنجزات العلمية والإنسانية في القرن العشرين. مؤسسة عبد الحميد شومان، لبنان: 2007، ص593.

<sup>3</sup> عباس محمد الحبيب . « الفكر التونسي الحديث ». مجلة الفكر، ع7، تونس: أبريل 1968، ص18.

<sup>4</sup> العربي بشير، الدور الاجتماعي لمثقفي المجتمع التونسي في فترة الاحتلال الفرنسي حتى 1956، جامعة تونس: ك.آ.ع.إ، ص38.

<sup>4</sup> ابن صابر، « تجنيس الأرض التونسية »، جريدة الحرية، ع: 78، تونس: 9 ذي الحجة 1349هـ / 10-07-1947م، ص3.

<sup>5</sup> مجموعة مؤلفين. الشيخ محمد قبادو ومكانته في تاريخ الأدب التونسي، ط1، تونس: مطبعة سوجيم، دت، ص83.



- <sup>6</sup> م.ب.د.ت.ج.م ، المرأة في الحركة الإصلاحية من الطاهر حداد إلى زين العابدين بن علي ، ط1 ، تونس : شركة فنون الرسم للنشر والصحافة ، 2002 ، ص14.
- <sup>7</sup> المطوي عبد المجيد ، تونس وفرنسا ، ط1 ، تونس : مطبعة الترقى ، 1957 ، ص81.
- <sup>8</sup> نقلا عن : التيمومي الهادي ، الاستعمار الرأسمالي والتشكيلات الاجتماعية قبل الرأسمالية ، الكادحون الخماسة في الأرياف التونسية 1861-1943 ، ط1 ، تونس : دار النشر محمد علي الحامي للنشر والتوزيع بصفاقس ، 1999 ، ج2 ، ص159.
- <sup>9</sup> مجهول ، « مؤتمر حرية الفكر » ، جريدة الحاضرة ، ع : 815 ، تونس : 11-10-1904 م / 02 شعبان 1322هـ ، ص1.
- <sup>10</sup> المناعي الطاهر ، المثقفون التونسيون والحضارة الغربية فيما بين الحربين العالميتين 1914-1939 ، ط1 ، تونس : مطبعة دار الطباعة للنشر بسوسة ، 2001 ، ص21.
- <sup>11</sup> الميساوي عبد الجليل ، ما الإصلاح وكيفية السبيل إليه ، دراسة تحليلية لمسيرة الإصلاح في التاريخ العربي الإسلامي ، ط ، تونس : مطبعة نوها ، د ت ، ص221.
- <sup>12</sup> المناعي ، المرجع السابق ، ص22.
- <sup>13</sup> I.B.L.A, 19, Année 1956, n° 74, p.306 أحمد بن أبي الضياف ، (رسالة في منفعة إقامة مطبعة للكتب المطبوعة بمحرسة تونس).
- محمد بن الخوجة : (1870-1943) من عائلة تونسية عريقة معروفة بالعلم ، درس في المدرسة الصادقية ، وبعدها أصبح أميناً مترجماً في إدارة الحماية ، ثم رئيس مكتب محاسب في الحكومة التونسية خلفاً ليشير الصفر الذي عين رئيساً لجمعية الأوقاف ، كلف بوضع تصنيف لمكتبة الجامع العظم ، كان متعاوناً مع جريدة الحاضرة ، مديراً للمطبعة الرسمية ، حيث استغلها في نشر ما تعرف بالرزنامة التونسية ما بين 1901-1917 . وفي عام 1908 شارك في المؤتمر الشمال الإفريقي المنعقد في فرنسا ، كما كتب عن زيارة الرئيس الفرنسي فاليار إلى تونس عام 1912 ، ورحلة الناصر باي التونسي إلى فرنسا عام 1913 . وبعدها أصبح مترجم القصر ، وتقلد منصب حاكماً على ولايات قابس والكاف وبنزرت عام 1924 ، وكونسي حكومة ، غير أن وصول المنصف باي على الحكم تم وضع حدا لتواجده في القصر الملكي ، حتى وفاته 1943 . من أعماله : تاريخ عالم التوحيد في القديم والجديد ، تاريخ مسجد الزيتونة . أنظر :
- Fontaine Jens. Histoire de la littérature tunisienne. du 19 siècle à l'indépendance  
Tunis: imp réunies ,T2 ;1999, p.151,152.
- كذلك انظر : الزملي الصادق. أعلام تونسيون ، (تقديم : حماد الساحلي) ، ط1 ، لبنان : د.غ.إ. ، 1986 ، ص ص 225-235.
- <sup>14</sup> بن عاشور محمد الفاضل بن عاشور ، الحركة الأدبية والفكرية في تونس في القرنين (13-14هـ / 19-20م) ، ط1 ، تونس : مطبعة الرشيد للطباعة والنشر ، 2005 ، ص145.



- <sup>15</sup> المناعي، المرجع السابق، ص 51.
- <sup>16</sup> التواتي مصطفى، تونس الناهضة من التجديد إلى التحديث في القرن 18 و19 م ط1، تونس: مطبعة شركة المنار، 2002، ص 35.
- <sup>17</sup> المحجوبي، المرجع السابق، ص 112.
- <sup>18</sup> هي قضية بن عياد الذي اختلس أموالا من الخزينة التونسية وفر بها إلى فرنسا عام 1852م. أنظر: المحجوبي، المرجع السابق، ص 113.
- <sup>19</sup> بينما يذكر علي المحجوب أربع سنوات 1853-1857 أنظر: المحجوبي، نفسه، ص 112.
- <sup>20</sup> الذوايدي، زهير، « رواد الإصلاح »، مجلة الفكر، ع: 8، ت ونس: ماي 1974، ص 104، 105.
- <sup>21</sup> المحجوبي، المرجع السابق، ص 113.
- <sup>22</sup> فان كريكن ج. س، خير الدين والبلاد التونسية 1850-1881، (ترجمة: البشير بن سلامة)، ط1، دار سحنون، 1988، ص 122.
- <sup>23</sup> التونسي خير الدين، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، (تحقيق: المنصف الشنوفي)، تونس: ط2، شركة أروبيس للطباعة، 2000، مج 1، ص 74.
- <sup>24</sup> كريكن، المرجع السابق، ص 122.
- <sup>25</sup> المحجوبي، المرجع السابق، ص 113.
- <sup>26</sup> نفسه، ص 114.
- <sup>27</sup> نفسه، ص 116.
- <sup>28</sup> زيادة نقولا، أعلام عرب محدثون من القرنين الثامن والتاسع عشر، لبنان: الأهلية للنشر والتوزيع، 1994، ص 80.
- <sup>29</sup> جنتين أتيل، خير الدين باشا التونسي. من خلال وثائق تونسية وتركية نادرة. (ترجمة: مصطفى السيتي)، ط1، تونس: مطبعة أروبيس، 2005، ص 80، 81.
- <sup>30</sup> التواتي، المرجع السابق، ص 35.
- <sup>31</sup> نفسه، ص 38.
- <sup>32</sup> بن عاشور محمد الفاضل، أعلام الفكر وأركان النهضة بالمغرب العربي، د. ط، تونس: المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، 2000، ص 174.
- <sup>33</sup> بيرم الخامس محمد. صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، ط1، مصر: المطبعة الإعلامية، 1303هـ، مج 1، ج 3، ص 153.
- <sup>34</sup> بيرم الخامس محمد، صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، (تحقيق: علي بن الطاهر الشنوفي)، ط2، شركة أروبيس للطباعة والنشر، 1999، مج 1، ص 154.



- <sup>35</sup> بيرم الخامس محمد. صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، ط1، مصر: المطبعة الإعلامية، 1303هـ، مج2، ج4، ص61.
- <sup>36</sup> زيادة، المرجع السابق، ص41.
- <sup>37</sup> نفسه، ص233.
- <sup>38</sup> نفسه، ص234، 235.
- <sup>39</sup> المناعي، المرجع السابق، ص111، 112.
- <sup>40</sup> السنوسي محمد، الرحلة الحجازية (تحقيق: علي الشنوفي)، د.ط، تونس: المطبعة الرسمية، 1976م، ج1، ص85.
- <sup>41</sup> C.D.N, B,3,16، الاستطلاعات الباريزية. 1889،
- <sup>42</sup> السنوسي، المصدر السابق، ص246، 247.
- <sup>43</sup> نفسه، ص173، 174.
- <sup>44</sup> الورتتاني محمد المقداد، البرنس في باريس رحلة إلى فرنسا وسويسرا 1913، ( تقديم: سعيد الفاضلي)، ط1، لبنان: مطبعة رشاد برس، 2004، ص252.
- <sup>45</sup> نفسه، ص212.
- <sup>46</sup> نفسه، ص176.
- <sup>47</sup> نفسه، ص190-197.
- <sup>48</sup> نفسه، ص198، 103.
- <sup>49</sup> نفسه، ص303.
- <sup>50</sup> الجعايبي محمد، المدرسة الصادقية، جريدة الصواب، ع 417، تونس: 17 جمادي الثانية 1342هـ / 01-25-1924م، ص1.
- <sup>51</sup> المحجوبي، المرجع السابق، ص87.
- <sup>52</sup> جوليان شارل أندري -المعمرون وحركة الشباب التونسي، (تعريب: محمد مزالي والبشير بن سلامة)، ط2، تونس: الشركة التونسية للتوزيع، 1986، ص123.
- <sup>53</sup> « (1875-1926) من أسرة برجوازية متواضعة، تعلم بثانوية كارتو، ثم سافر إلى فرنسا، ليعود منها متحصلا على الإجازة في الحقوق، من جامعة اكس الفرنسية، توظف بالجمعية الخلدونية، ساهم في النشاط الفكري والأدبي باللغة الفرنسية، والمحاضرات. الزملي، المرجع السابق، ص ص 170-190.
- <sup>54</sup> نفسه، ص ص 133-137.
- <sup>55</sup> العنكي أحمد، « المدنية الأوربية »، ج الوزير، ع: 256، تونس: 3 ربيع الثاني 1347هـ / 08-09-1928م، ص2.



- <sup>56</sup> حانبه علي باش ، «الإرساليات المدرسية» ، تونس : 13 جمادي الثانية 1328هـ / 20-06-1910م ، ص1.
- <sup>57</sup> A.Q.O ,B: 616,Dos : 232,F : 70, note au sujet de l'ouvre de la I.S.H.M.N.T ,  
caravane des études tunisiens en France ,09/06/1947
- <sup>58</sup> A.Q.O ,B : 616,Dos : 232,F : 64, 65, le résident général de France à I.S.H.M.N.T ,  
.Tunis à monsieur Georges Bidault ministre des affaires étrangères ,13/05/1947
- <sup>59</sup> مجهول ، «إفلات نظر» ، ج التونسي ، ع 48 ، تونس : 07 صفر 1329هـ / 02-06-1911م ، ص1.
- <sup>60</sup> ابن عاشور. المصدر السابق ، ص72.
- <sup>61</sup> محمد بن الخوجة .صفحات من تاريخ تونس ، (تقديم: حماد الساحلي والجيلالي بن الحاج يحيى) ، ط1 ، لبنان : د.غ.إ. ، 1986 ، ص314.
- <sup>62</sup> الجعابيين محمد ، « المدرسة الصادقية» ، جريدة الصواب ، ع 417 ، تونس : 17 جمادي الثانية 1342 / 25-01-1924 ، ص1.
- <sup>63</sup> مركز التوثيق القومي ، ب ، 2 ، 33 ، المدرسة الصادقية-3. ص1. أو محمد النعمان ، «جريد الزهرة» ، 17-02-1924.
- <sup>64</sup> العربي علي ، علي بوشوشة حياته وأثاره. ط1 ، تونس : و.ث.م.ع.ت.و ، 2000 ، ص10 ، 11.
- <sup>65</sup> بن يوسف عادل ، النخبة العصرية-طلبة الجامعات الفرنسية 1880-1965 ، تونس : دار الميزان للنشر بسوسة ، 2006 ، ص72.
- <sup>66</sup> الشمام محمود ، أعلام من المدرسة الصادقية ، ط1 ، تونس : مطبعة بيبليك ، د. ت ، ص34.
- <sup>67</sup> التميمي عبد الجليل ، النخب في المغرب العربي ، ط1 ، تونس : مطبعة بابيريس بنابل ، 2002 ، ص32.
- <sup>68</sup> بوشوشة العربي حياته وأثاره. المرجع السابق ، ص10 ، 11.
- <sup>69</sup> المناعي ، المرجع السابق ، ص2.
- <sup>70</sup> باش حانبه «الإرساليات المدرسية» ج التونسي : ع 31 ، المقال السابق ، ص1.
- <sup>71</sup> ابن عاشور. المصدر السابق ، ص107.
- <sup>72</sup> المحجوبي علي ، جذور الحركة الوطنية التونسية 1904-1934 ، (تعريب: عبد الحميد الشابي) ، ط1 ، مصر : شركة أرابيسك للطباعة ، 1999 ، ص214.
- <sup>73</sup> الطويلي أحمد. عثمان الكعاك حياته ومؤلفاته. ط1 ، تونس : المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية ، 2009 ، ص9.
- <sup>74</sup> نفسه ، ص9 ، 10.
- <sup>75</sup> نفسه ، ص14.
- <sup>76</sup> الخضر محمد حسين. رسائل الإصلاح ، ط1 ، القاهرة : مطبعة الهداية الإسلامية ، 1358هـ / 1939م ، ج1 ، ص18 ، 19.



<sup>77</sup> عبيد عبد الرحمان، المقال الأدبي في النثر التونسي الحديث في نشأة المقال وظهور المقال الإصلاحي بتونس 1836-1881، د ط، تونس: دون دار طبع، ج 1، 2005، ص 97.

<sup>78</sup> مجهول «في قاعة الخلدونية» جريدة الصواب، ع: 585، ت ونس: 14/ 06/ 1929م، ص 2.

<sup>79</sup> مجهول، «رجوع القافلة السابعة»، جريدة الصواب، ع: 591، تونس: 23-08-1929 م./ 17 ربيع الأول 1347هـ، ص 3.

<sup>80</sup> مجهول، «قافلة التلاميذ التونسيين السابعة إلى الديار الفرنسية»، جريدة الصواب، ع: 585، تونس: 14-06-1929 م./ 07 محرم 1347هـ، ص 2.

<sup>81</sup> I.S.H.M.N.T, A.Q.O, B: 616,Dos:1,s/dos: 232,F:1, Tunisiens étudiants désirants suivre leurs études dans les universités américaines ,13-10-1944.

<sup>82</sup> I.S.H.M.N.T, A.Q.O, B: 616,Dos:1,s/dos: 232,F:100, Etudiants Tunisiens Bénéficiaires D'une Bourse De La Direction Générale Des Affaires Culturelles Pour 1948/1949. S.d.

<sup>83</sup> I.S.H.M.N.T, A.Q.O, B: 616,Dos: 231,F:71 ,Tunisiens à Paris,13/06/1947.

<sup>84</sup> IBID ,S.H.M.N.T , A.Q.O ,B : 616,Dos : 232,F : 58,59 ,Note sur les étudiants musulmans tunisiens a paris, 07/05/ 1947.

<sup>85</sup> IBIID , B : 616,DOS : 232,F : 60

<sup>86</sup> I.S.H.M.N.T , A.Q.O ,B : 616,Dos : 232,F :32 ,de Directeur de L'instruction Publique à Monsieur Le Général MAST, Résidant Général De France à Tunis , 29/10/1946.